هنالك غضب أبو خالد، وقال لصاحبه في شيء من العنف: فإنَّا اجتهدنا لأنفسنا وأموالنا، واجتهدنا لهذين الشابين، ولا علينا بعد ذلك أن يسعدا أو يشقيا، أحدهما أو كلاهما. إنها ابنتك الوحيدة، وإنه ابني الوحيد، وإن لك ثروة ضخمة، وإن لي تجارة واسعة، وإن بيننا شركة بعيدة المدى، وإخاء قديم العهد، فلم يكن بد من أن يقترن هذان الشابان، ومن أن يصير إليهما هذا المال.

وأظنك في حاجة قبل أن يتقدم هذا الحديث إلى أن تعرف شيئًا من أمر هذين الرجلين اللذين كانا يتناجيان. فأما أبو صالح: فقد كان رجلًا من أهل القاهرة، من هذه الطبقة المتوسطة التي أخذ شأنها يظهر شيئًا فشيئًا في أواسط القرن الماضي حين رُدَّ إلى المصريين شيء من حرية، وحين أتاحت لهم النهضة المادية شيئًا من سعة العيش، وكانت أسرته تعمل في التجارة منذ عهد بعيد، نشأ أبو صالح هذا «عبد الرحمن»، فرأى أباه مصطفى تاجرًا، وتحدث إليه أبوه أنه رأى أباه تاجرًا، وأنه لم يعرف أنَّ أسرته احترفت شيئًا غير التجارة. ولكن تجارة الأسرة كانت يسيرة قريبة المدى، حتى جاء مصطفى «أبو عبد الرحمن» فقدمها شيئًا، ثم جاء عبد الرحمن هذا فقدمها كثيرًا، وتجاوز بها القاهرة إلى الأقاليم البعيدة والقريبة، وكان يتجر في البن والسكر والأرز والصابون، ولا يكاد يتجاوز هذه الأصناف إلى غيرها من العروض، وقد نشأ في بيت الأسرة «بحي الحرنفش» نشأة قاهرية عادية، فاختلف إلى الكُتَّاب، وحفظ شيئًا من القرآن، ثم اختلف إلى الأزهر ووعى شيئًا من العلم، ثم أعان أباه في التجارة، وتنقل بهذه التجارة في الأقاليم، ثمَّ آلت إليه تجارة أبيه فنماها نموًّا عظيمًا.

وكان عبد الرحمن قد اشترى من سوق الرقيق في القاهرة جارية حبشية، أو جارية زعموا له أنها حبشية، ولكنها كانت سوداء على كل حال، وأكبر الظن أنها لم تخل من عنصر زنجي قليل أو كثير، وقد أحسن عبد الرحمن سيرته مع هذه الجارية، فأعتقها واتخذها له زوجًا، ورُزق منها ثلاثة بنين: غلامين، أحدهما صالح — وبه كان يكنى — وكان يعمل معه في تجارته بعد أن نشأ نشأة أبيه؛ والآخر: محمد، وقد وجهه أبوه وجهًا مدنيًّا، فلم يحصِّل علمًا، ولم يمل إلى تجارة، وإنما كان فتى متعطلًا، كان ضحية من هذه الضحايا التي تكثر في أوقات التطور والتجديد، حين تلتقي حضارة قديمة مستقرة بحضارة جديدة طارئة. والثالثة: فتاة سماها نفيسة، وقد أراد الله أن يجمع ما كان يمكن أن تتوارثه هذه الأسرة من ناحيتيها من قبح الصورة ودمامة الشكل على هذه الصبية البائسة، وقد نشِّئت هذه الصبية تنشيئًا فيه كثير من الترف وكثير من العناية. وكأن